

مقتطفة من كتاب: "عندما يتعري الإنسان" "الشعلة والحريق" (2)



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2018/10/06

المسنة الثانية عشرة - العدد: 4053

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

مقدمة:

امتدادا لما أشرنا إليه سابقا، وبإصرار العناد والأمل: تم تخصيص اليوم "السبت" لمقتطفات من كتاباتي السابقة التي لها علاقة دالة بالفروض التي تعتبر إرهابات أو أساس هذا الفكر الدائم النمو والتطوير.

هذا وقد طلب مني بعض الأصدقاء الذين أطلعوا على نشرة السبت الماضي أن أوصل نفس الحكاية، لكنني ترددت خشية أن يجرى ذلك إلى نشر كل الحكاية، ومع ذلك وبناء على إلحاحهم سوف أنشر اليوم هذا الجزء فقط، وهذا عهد حازم ألا أكرر ذلك وعلى من يريد أن يقرأ الحكاية كلها أن ينظر في الهامش.

مقتطف من كتاب:

"عندما يتعري الإنسان" (1)

الشعلة والحريق (2) (2)

"..... وانتهد فترة نابضة قاسية من صدر شبابي. وانطأأت إحدى الشموع، ولكن ضوءا خافتاً آخر بدأ في الظهور، هل تريد أن تعرف بماذا آمنت بعد ذلك؟ ولكن قل لي يا دكتور هل تؤمن أنت بشيء، أم أنك ترتزق مثل سائر الكهنة المرتزقة من احتراف مهنة ما.. طبعا أنت مرتزق، هذا واضح، ولكن هذا لا يمنع من السؤال: هل تؤمن بشيء؟

= أنا لا أصلح لهذا العمل إن لم أؤمن.

- وبماذا تؤمن؟

= أؤمن بالحياة تتحرك نحو غايتها، أؤمن بالإنسان وسلامة توجهه،.. أؤمن بقدرته على التطور إلى ما بعده وعلى التجديد فيما عنده، أؤمن بالسعى إليه

- يا سبحان الله.. يظهر أنه لا بد أن تسير طريقي كله حتى تكفر بكل هذا.. أنت تتفرج على الناس من فوق كرسيك هذا وتتشدق بالألفاظ، ولكنك لا تعايشها مثلما فعلت، ولكن قل لي بالله عليك كيف تحتفظ بإيمانك هذا وأنت ترى الفشل تلو الفشل في صورتنا نحن المرضى.. ألا نبيسك في حياتك وآمالك حين نفشل ونستسلم؟ هل مازلت ترى نبض الإنسان وراء حطام مثل هذا الجسد الحي الميت: أنا.

= إن ما حافظ على إيماني هذا هو قدرة الإنسان الخارقة على أن يجمع شتات نفسه رغم كل شيء وبعد كل شيء... إن مازاد إيماني بالإنسان هو رؤيتي له عاريا يصارع الزيف بالألم، نعم بل

لكن قل لي يا دكتور هل تؤمن أنت بشيء، أم أنك ترتزق مثل سائر الكهنة المرتزقة من احتراف مهنة ما.. طبعا أنت مرتزق، هذا واضح، ولكن هذا لا يمنع من السؤال: هل تؤمن بشيء؟

أؤمن بالحياة تتحرك نحو غايتها، أؤمن بالإنسان وسلامة توجهه... أؤمن بقدرته على التطور إلى ما بعده وعلى التجديد فيما عنده، أؤمن بالسعى إليه

أنت تتفرج على الناس من فوق كرسيك هذا وتتشدق بالألفاظ، ولكنك لا تعايشها مثلما فعلت

قل لي بالله عليك كيف تحتفظ بإيمانك هذا وأنت ترى الفشل تلو الفشل في صورتنا نحن المرضى

إن ما حافظ على إيماني هذا هو قدرة الإنسان الخارقة على أن يجمع شتات نفسه رغم كل شيء وبعد كل شيء،

حين تهتت في سراحديج الكهنوت، وانتصت الإيمان إلى غياباته التنظيم السري،

وانقلب نور كلام الله إلى إرهاب كلام القادة والمرشدين

حين تصورت ما بين دفتي المصحف خلا لكل شيء فإذا بهم يستعملوني وسيلة للقهر والقتل والإرهاب الفكري

وجدت نفسي أرتمي في أحضان النقيض، وذهبت إلى حيث وجهتني قراءاتي الاشتراكية العلمية

كنت ما زلت أتلمس الطريق بما أقرأ من كلمات توجهني، وهناك في أروقة المادية الجدلية رأيت الإنسان ينتصر على شهواته

قرأت وطربت ورقصت الكلمات في وجداني رغم أنني تمللت من بعض التفسيرات المادية البحتة، ورغم أن داخلي رفض الإلحاد والهجوم على الدين

لكن داخلي ظل متمسكا بالنبيض الإيماني الذي يحس بالله سبحانه برغم كل شيء، وبلا أية وسيلة، ولا حتى غاية، ولكنني تجاهلت داخلي واندفعت إلى التفسير المادي للتاريخ

كلما صعدت درجة أحسست بالغرابة والانزعاج، فقد كانت الكلمات المضينة تتوارى وراء الإجراءات والأوامر والترتيبات، وبدأ فكري العر يحتج

قالوا:
إن الحرية خطر على الناس، إنهم يستعملونها في جمع المال وإذلال الآخرين، إن الحرية بهذا الشكل هي العدو اللدود للبشر، للطبقة

حتى بالمرض.. "أنت" الذي حافظت على إيماني هذا.

- أنا.. الله أكبر!.. أنا الذي كفرت بكل شيء أجعلك تحافظ على إيمانك، ما أعجب هذا: نبي كافر يؤمن من خلاله الناس.. أليس هذا هو الجنون بعينه.

= أنت ضقت بكل شيء.. ولكنك لم تكفّر بعد.. وإلا لما كنت هنا.

- أنا هنا حتى أكفر بك أنت أيضا.. أكفر بالطبّ وبالعلم، نعم العلم الطبي بعد أن كفرت بالعلم السياسي والاجتماعي.. هل تريد ان تسمع بقية حكاية الإيمان حتى الكفر؟

=

- أسمع يا سيدي:

حين تهت في سراديب الكهنوت، وانتهى الإيمان إلى غيابات التنظيم السري، وانقلب نور كلام الله إلى إرهاب كلام القادة والمرشدين، حين تصورت ما بين دفتي المصحف خلا لكل شيء فإذا بهم يستعملوني وسيلة للقهر والقتل والإرهاب الفكري، وجدت نفسي أرتمي في أحضان النقيض، وذهبت إلى حيث وجهتني قراءاتي الاشتراكية العلمية، فقد كنت ما زلت أتلمس الطريق بما أقرأ من كلمات توجهني، وهناك في أروقة المادية الجدلية رأيت الإنسان ينتصر على شهواته، قرأت عن التطور والعدل، عن الرحمة وحسن التوزيع، عن العمل والإنتاج قرأت وطربت ورقصت الكلمات في وجداني رغم أنني تمللت من بعض التفسيرات المادية البحتة، ورغم أن داخلي رفض الإلحاد والهجوم على الدين، رغم كل هذا فقد ارتقيت في أحضان المادة والعلم المادي بعد أن كفرت بالكهنوت، بالمظاهر الدينية، ولكن داخلي ظل متمسكا بالنبيض الإيماني الذي يحس بالله سبحانه برغم كل شيء، وبلا أية وسيلة، ولا حتى غاية، ولكنني تجاهلت داخلي واندفعت إلى التفسير المادي للتاريخ، وبما أن الكلمات عندي هي المعنى الملزم بالفعل: قررت التنفيذ، ولم أدخل هذا السبيل من الباب الجانبي، بل بدأت الطريق في الظلام، ومن أول لحظة، فقد كان النشاط سريا منذ البداية، وكنت قد تمرست على الرؤية في الظلام من أيام الأخوة إياها، فلم يكن غريبا على أن أقبل السير في الظلام وصعدت السلم من أوله: خلية صغيرة، ثم مسئولية كبيرة، وكلما صعدت درجة أحسست بالغرابة والانزعاج، فقد كانت الكلمات المضينة تتوارى وراء الإجراءات والأوامر والترتيبات، وبدأ فكري الحر يحتج، وقالوا أنت تحلم بغير الواقع.

قالوا:

إن الحرية خطر على الناس، إنهم يستعملونها في جمع المال وإذلال الآخرين، إن الحرية بهذا الشكل هي العدو اللدود للبشر، للطبقة العاملة، ونحن نمثل الطبقة التي تمثل الأغلبية، ونحن أحرار، إذن فالأغلبية أحرار، وهذا يكفي لقيام الحرية، ويبدو أن عقلي المثالي لم يقبل إلا الأحلام، وبعثوني في مؤتمرات السلام، وما أبهج الكلمات حين تدور حول حلم الإنسان عن العدل والسلام.

ولكن..، يا سبحان الله: ما هذه الأسوار العالية حول الفكر؟ ما هذه القيود حول الجديد؟ ما هذا الخوف من الرأي؟ إن الأفكار الجميلة حين تخرج إلى التطبيق لابد أن تتبناها حكومة، وللحكومة "بوليس" و"للبوليس" رئيس، وللرئيس صولجان وهيلمان، وللحزب "مفتي" وللفتوى تفسير، وللتفسير تأويل... إننا حين نمارس الفكر المشرق في واقع الحياة نصاب بخيبة أمل لا حدود لها، وكانت خيبة أملى شديدة حين سافرت إلى بلاد اليسار الأحمر، حين رأيت الأمل يختنق في الصدور، حين رأيت الكلمات تحبس في الحلق، حين اكتشفت أن أفكاري أنا شخصا تتردد في الورود إلى ذهني، إلى هذا الحد وصل القهر إلى داخلنا: أنا أمنع نفسي أن أفكر خشية أن يجرنى فكري إلى مناطق محظورة تضر بالطبقة الحاكمة - أعني الطبقة العاملة - في كفاحها المجيد ضد الاستغلال، الطبقة العاملة هي السيد والباقون طماعون سفاحون خبثاء، ولكن لماذا نفكر نحن رجال الحزب للطبقة العاملة، أليست لهم عقول يفكرون بها، ولكن أين هي الطبقة العاملة؟ إنها بين دفتي الكتب العقائدية، يبدو أن وجودها غير

حقيقي، إذ أننا نتكلم باسمها، وهم يحكمون باسمها، ثم هي في واقع الأمر.. أين هي؟. ويبدو أن تفكيرى كان مثاليا عجز عن استيعاب الذى يجرى "كمرحلة" فاستعجل الوصول.

وتوقفتُ فجأة.

وأخذ إيمانى يهتز بالمادية كما يحدونها، ورفضت أن تحجز أفكارى على أفكارى، رفضت أن تكون الكلمات الجامدة هي السجن الذى نسجن فيه الإنسان لصالح طبقه ما.. رفضت أن تكون هناك وصاية مذهبية على الفكر والتفكير.. أو وصاية طبقية على الحكم أو على الشعب: طبقة الحزب وصية على الحكام، والحكام أوصياء على الشعب، والشعب مسموح له أن يفكر فى الطريقة التى يحقق بها المادية الجدلية ذاتها.. ممنوع الجدل فى الجدل.. لقد حلت النظرية كل شيء، الإنسان يستغل الإنسان منذ الأزل، وقد آن الأوان لتوقف كل هذا، وإذا بالإنسان يستغل الإنسان من أجل أن يتوقف الإنسان عن استغلال الإنسان.

وكفرت، وكفرت...

ذبلتُ شمعةً جديدة.. ويئستُ وأنا أتحسس طريقى وسط الظلام على ضوء خافت يتراقص، وحين مددت يدي نحو الضوء احترقت وأفقت، ووجدت أن جذوة النار لم تهدأ.

وانحرفت.. هكذا قالوا!!

وصموني بالانحراف وبالنكسة وبالتردى فى هاوية المرتدين الجبناء، أرهبوني وحطموني أمام نفسى، وكان جزء من نفسى يحاول أن يطفىء داخلى حتى أستمر فى طريق هذا الفكر المرتب، والعمل المنظم لتحقيق هذا الفكر العظيم، كنت أحاول أن أتصور أن الفشل فى التطبيق ليس إلا مرحلة لابد أن نتخطاها، ولكن القائمين على الأمر كانوا واثقين من أنفسهم ومن النظرية أكثر مما ينبغى، أكثر مما أطيق، لم يكن فى هذه الحياة إلا مذهب واحد.. وللمشاكل إلا حل واحد وللأمراض إلا تشخيص واحد، لم يكن عندهم إلا تكفير واحد وحرية واحدة وطبقة واحدة فكل شيء ورد فى أقوال الزعيم، كل شيء وضع له حل، اليوم وغدا وبعد ألف عام، ورفضت ورفضت.. وكلما اقتربت أطفى الجذوة بأن ألقى عليها حجارة من الكلمات المرصوفة، كانت نفسى تتلف الحجارة وتوقدها بالوهج حتى تحمر الحجارة وتتصهر، وأصبحت الكلمات الجامدة وقودا للثورة على نفسى، ولم أستطع يا سيادة الطبيب، لم أستطع...

أنا إنسان خيالي فاشل برغم محاولاتى المتكررة أن أعيش واقعى... أن أواقع الكلمات، أنا لا أقرأ الكلمات.. أنا أعيشها، أنا أعاشرها، أناغيبها، أرافقها، الكلمات تدخل خلاياى وتسرى فى دمي وتبيض فى عروقى، تصبح هي أنا، وأنا هي، فإذا حاولت أن أسير بها وجدت الفرق شاسعا بين ما فى أوراق الكتب وما فى واقع التطبيق، وخاصة حين أشاهد مصير الكلمات فى تصرفات الرؤساء. ألم أقل لك أنتى كنت كلما صعبت الدرج ازددت جزعا. كان المسئولون يتراشقون بالكلمات دون معانيها، كانوا يستعملون المبادئ لتحقيق أشياء أخرى غير المبادئ.

هل هو الطمع؟

هل هي السلطة؟

هل... ماذا؟.. لماذا؟. قل لى ياسيادة الطبيب النجيب ما هو ذلك الشيء الذى يُنسى الإنسان نفسه؟

= الخوف

- هو ذلك.. الخوف.. لقد خفت كل شيء، إنك إذ تخاف تفعل أى شيء وكل شيء حتى تتجو من الرعب الذى يملكك، لقد خافوا على الإنسان حتى قضوا على الإنسان، خافوا على العمال حتى خنقوا الحرية، خافوا على أنفسهم حتى نسوا أنفسهم وخفت أنا أيضا، كما أن من حقهم أن يخافوا، فمن حقى أيضا أن أفر بجلدى وفررت... ولكن إلى أين؟ ياوحشة الطريق.. إليك، إلى الأمان المطلق إلى الجنون المطبق.. أه.. يا إنسان يا غريب الأطوار.. تبا لك من حشرة جبانة تهرب إلى الجحر بمجرد

كانت خيبة أملى شديدة
حين سافرت إلى بلاد اليسار
الأحمر، حين رأيت الأمل
يختنق فى الصدور، حين
رأيت الكلمات تنعيس فى
الخلوق

إلى هذا الحد وصل القمر
إلى داخلنا: أنا أمنع نفسى
أن أفكر خشية أن يجرنى
فكرى إلى مناطق محظورة
تضر بالطبقة الحاكمة - أعمى
الطبقة العاملة - فى كفاحها
المجيد ضد الاستغلال

لكن لماذا نفكر نحن رجال
العرب للطبقة العاملة، أليست
لهم عقول يفكرون بها،
ولكن أين هي الطبقة
العامة؟ إنما بين دفتى
الكتب العفاندية، يبدو أن
وجودها غير حقيقى، إذ أننا
نتكلم باسمها، وهم يحكمون
باسمها، ثم هي فى واقع
الأمر.. أين هي؟.

توقفتُ فجأة.

وأخذ إيمانى يهتز بالمادية
كما يحدونها، ورفضت أن
تحجز أفكارى على أفكارى،
رفضت أن تكون الكلمات
الجامدة هي السجن الذى
نسجن فيه الإنسان لصالح طبقه
ما..

رفضت أن تكون هناك
وصاية مذهبية على الفكر
والتفكير.. أو وصاية طبقية
على الحكم أو على الشعب

لقد حلت النظرية كل شيء،
الإنسان يستغل الإنسان منذ
الأزل، وقد آن الأوان لتوقف
كل هذا، وإذا بالإنسان
يستغل الإنسان من أجل أن
يتوقف الإنسان عن استغلال

= إن تجربتك مرة، ولكن لا تمتهن الإنسان، فقد عاش حتى الآن يصارع نفسه وهو يصارع الخوف.. وهو مازال دائم التقدم بالرغم من كل شيء.

- نعم بالرغم من كل شيء، لدليل أنك جالس خلف كرسيك ترتزق من أشلائه المتناثرة = أنا أعيش وأفعل ما أستطيع

- وماذا تستطيع حين يكفر إنسان بنفسه.. ماذا تستطيع أن تفعل له أنت؟

= أستطيع أن أحبه رغم كل شيء، أحبه جزءاً جزءاً حتى يجمع شتات نفسه، أثق فيه وهو في قمة تصدعه.. أصحابه حتى يستمر كما ينبغي.

- ينبغي؟ وماذا ينبغي ياسيادة الطبيب؟ ينبغي أن أغمض عيني وأكتفى بأن أذهب إلى وظيفتي وأقبض راتبي آخر الشهر؟ أن أقتنى امرأة حضانة تنتفخ بطنها بين الحين و الحين ببعض ما ألقه فيها من فضلات اللذة، حتى تزيد عدد الأحياء التعساء، ماذا ينبغي يا سيادة الطبيب؟. قل لي بربك ماذا تفعل بالناس من على كرسيك هذا؟ أنت تساعد في "ميكنة" الإنسان وقتل مشاعره.

= بل أنا أحاول أن أساهم في الحفاظ عليه حتى يكمل طريق الثورة والتطور. إن المرض رفض، والرفض لا يثمر إلا بقيام الثورة وأنا أقف بجوارك لنكمل الطريق.. فالثورة لا تكون ثورة إلا بعد تحقيقها. وإلا فهي محاولات مهضبة في الظلام. لا يخرج منها إلا مسخ ناقص النمو.

- عليك نور.. أنا المسخ ناقص النمو أنا المسخ المشوه.

= ولكن هذا التشوه الذى يظهر عليك مرحلى وسطحى، أما جوهرك فهو هو، وإلا ما مرضت، المرض يصبح نعمة حين تخرج منه أصلب عودا، وأقدر على الاستمرار.

- الاستمرار!! لقد حاولت الاستمرار، وباستمرار. هل تعلم ماذا فعلت بعد أن ضللت في دهاليز الكهنوت الدينى وضعت فى سراديب مادية التاريخ؟ اسمع يا سيدى:

- [1] هذا الكتاب برغم صدوره منذ حوالى نصف قرن مازال يمثل كتيبى كتاب قبولاً ورواجاً عند القارئ العادى، وهو عرض لحالات متخيلة (نابعة من واقع مؤلم رائع)، تبدأ بحوار بين فتى فى فترة نقاهة وطبيبه الحكيم الذى يستجيب له ويحكى له عن خبرته على لسان مرضاه، وهذا المقتطف هو بداية حكاية هذا الإنسان الذى آمن حتى كفر، فمرض.

**** *

- [2] المقتطف: من حكاية "الشعلة والحريق": كتاب "عندما يتعري الإنسان" (الطبعة الأولى 1969، والطبعة الرابعة 2017) منشورات جمعية الطب النفسى التطورى، والكتاب يوجد فى الطبعة الورقية فى مكتبة الأنجلو المصرية وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفى مركز الرخاوى للتدريب والبحوث: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا بموقع المؤلف، وهذا هو الرابط www.rakhawy.net

إرتباط كامل النص:

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD061018.pdf



شبكة علوم النفس العربية

نحو لياقة نفسانية أفضل

مؤسسة العلوم النفسية العربية
معاً ... نذهب أبعد

انبرفتي... هكذا قالوا!!
وصمونى بالانحراف وبالنكسة
وبالتردى فى هاوية
المرتدين الجبناء، أرسبونى
وحطمونى أمام نفسى

لكن القانمين على الأمر
كانوا واثقين من أنفسهم
ومن النظرية أكثر مما
ينبغي، أكثر مما أطيق، لم
يكن فى هذه الحياة إلا
مذهب واحد.. وللمشاكل إلا
حل واحد وللأمراض إلا
تشخيص واحد، لم يكن
مخدعهم إلا تفكير واحد
وحرية واحدة وطبقة واحدة

هو ذلك.. الخوف.. لقد خفت
كل شيء، إنك إذ تخافه
تفعل أى شيء، وكل شيء،
حتى تنجو من الرعب الذى
يتملكك

لقد خافوا على الإنسان حتى
قتلوا على الإنسان، خافوا
على العمال حتى خنقوا
الحرية، خافوا على أنفسهم

هل تعلم ماذا فعلت بعد أن
ضللت فى دهاليز الكهنوت
الدينى وضعت فى سراديب
مادية التاريخ؟